

الباب الأول

ابن حزم: عصره وحياته وتراثه

الفصل الأول: عصر ابن حزم.

الفصل الثاني: حياة ابن حزم.

الفصل الثالث: إنتاج ابن حزم العلمي.

obeikandi.com

الفصل الأول عصر ابن حزم

أولاً: الحالة السياسية:

نعتقد أنه لا يمكن فهم إبداع ابن حزم في كتابه، ولا أسلوبه وما اتصف به من حدة، ولا مرمى فكره واتجاه أبحاثه، ولا مثله العليا وطباعه ومزاجه إلا إذا عرفنا تلك الأيام التي عاشها ابن حزم، والأحوال التي أظلتها، وكانت أقسى مما خط أى مؤرخ وأشد هَوَلاً من تصوير أى خيال^(١).. والذى يهمننا فى بحثنا هذا أن نلقى بعض الضوء على أهم الأحداث والظروف السياسية التى عاصرت ابن حزم، وتركت آثارها على كتابه «الفصل».

ولد ابن حزم فى عهد «هشام المؤيد»^(٢) الذى تولى بعد «الحكم المستنصر»^(٣) وهو غلام فى العاشرة من عمره، وكان ضعيف العقل، محدود الذكاء، خائر العزيمة^(٤)، حجبته فى القصر واستبد بالأمر دونه المنصور بن أبى عامر، الذى كان من وزرائه «أحمد بن سعيد» والد ابن حزم.. وقد استطاع أن يقضى على الخصوم ويسيطر على الحكم حتى دانت له الأندلس كلها وأمنت به، ولم يضطرب عليه شىء منها أيام حياته لعظيم هيئته وسياسته. ولقد كان المنصور - برغم أخطائه العديدة ومنها ما

(١) راجع الدكتور الطاهر مكى: دراسات عن ابن حزم ١٠٥.

(٢) هو هشام بن الحكم المستنصر، أمه أم ولد تسمى «صبيح» بويغ بالخلافة سنة ٣٦٦ هـ، ولما يجاوز الثانية عشرة من عمره، وكان فى طول دولته متغلباً عليه لا ينفذ له أمر (راجع جذوة المقتبس ١٧، والبغية ٢١).

(٣) هو الحكم بن عبد الرحمن الناصر، ولى الخلافة وله سبع وأربعون سنة، كان حسن السيرة، جامعاً للعلوم محباً لها، مكرماً لأهلها، وجمع من الكتب فى أنواعها ما لم يجمعه أحد من الملوك قبله هنالك، مات فى صفر سنة ست وستين وثلاثمائة (بغية الملتبس للضبى ١٨ - ٢١).

(٤) راجع: المغرب ١/ ١٩٤ - ١٩٥.

سار فيه على خطى «الناصر»^(١) من اتخاذ البربر والصقالية، والمأجورين والمرترقة، وإقصاء العرب - ناجحا في سياسته؛ إذ أعطى الأندلس ما أعطاه لها «عبد الرحمن الناصر» قبله من الهدوء والوحدة، والثراء والهيبة، مما تجاوز الأمم المجاورة وبلغ الخافقين^(٢).

وقد قام المنصور سنة ثلاث وتسعين وثلثمائة بآخر حملة حربية له، وكانت غاية أمانيه أن يموت مجاهدا، ويحس في أعماقه بأن رغبته سوف تتحقق يوما ما، ولذا كان يحمل معه أكفانه حيثما سار إلى الغزو، وهي أكفان صنعت من غزل بناته، واشترت من حرّ ماله، ويحمل معه التراب الذي تجمع على ملابسه في غزواته، ليدفن معه، فلا يدخل النار من اغبرت قدماه جهادا في سبيل الله، وفي مدينة سالم توفى، وفيها دفن عملا بوصيته أن يدفن حيث يموت^(٣). وقد تقلد الإمارة بعده ابنه المظفر أبو مروان عبد الملك بن محمد، فجرى في الغزو والسياسة والنيابة عن «هشام المؤيد» وحجابته مجرى أبيه، وكانت أيامه أعيادا دامت سبع سنين إلى أن مات^(٤). وتولى بعده أخوه عبد الرحمن بن المنصور الملقب «بشنجول» وكان نحسا على نفسه وعلى أهل الأندلس^(٥)؛ إذ خلا من كل الخصائص التي كانت لأبيه أو لأخيه من قبل، ومن ثم نراه يقدم على ما لم يفعله واحد منهما: حدثته نفسه بأن يصبح ولي عهد للخليفة «هشام الثاني» وتم له ذلك بمرسوم صدر في شهر ربيع الأول سنة ٣٩٩ هـ، وأقبل عليه المهنئون من الوزراء ورجال الدولة، يتكلفون البشر، والدعاء بما أكرمه الله به، وقلوبهم تفيض إنكارا وسخطا، وقد ذهب عبد الرحمن في غروره واختياله إلى أبعد مدى عندما عين ابنه الطفل عبد العزيز في خطة الحجابة،

(١) هو عبد الرحمن الناصر: ولي الأمر وله اثنتان وعشرون سنة، تسمى عبد الرحمن بأمير المؤمنين، وتلقب بالناصر لدين الله، مات في صدر رمضان سنة خمسين وثلثمائة (جذوة المقتبس ١٢).

(٢) راجع: دراسات عن ابن حزم ١٠٦.

(٣) راجع الحميدى: جذوة المقتبس ٧٩ والأستاذ محمد عبد الله عنان: دولة الإسلام ٥٦٦/٢.

(٤) الحميدى: الجذوة ٧٩.

(٥) ابن سعيد: المغرب في حلى المغرب ١/٢١٣.

وأسيغ عليه لقب «سيف الدولة» وهو لقب عمه المظفر، واعتقد عبد الرحمن أن الأمور قد دانت كلها له، فأطلق العنان لأهوائه، وانكبَّ على لهوه وشرابه يحيط به نفرٌ من بطانة السوء يصورون له الأحوال في أبداع الصور وأحبها إلى نفسه^(١). وقد انتهز أحد أحفاد عبد الرحمن الناصر، ويدعى محمد بن هشام ابن عبد الجبار - وكان المظفر قد قتل والده - فرصة أن عبد الرحمن شنجول في غزوة ضد «ألفونسو الخامس» ملك ليون، فقاد ثورة استولى بها على قصر الخلافة، وطلب من الخليفة «هشام المؤيد» خلع نفسه، فبادر هشام بالقبول خوفاً على حياته، ووليها محمد بن هشام، واتخذ لنفسه لقب المهدي بالله..

وفي الوقت نفسه أمر المهدي بنقل الأشياء الثمينة من مدينة «الزاهرة» مقر العامريين، إلى قرطبة، فدخل العوام والدَّهماء المدينة وحدث من النهب والسلب ما لا يقدر ولا يوصف، ويقال: إن نصيب الخليفة المهدي من هذه الغنائم التي حصلها من أموال الزاهرة المنهوبة خمسة آلاف وخمسمائة ألف دينار من النقود، ومن الذهب ما قيمته ألف ألف وخمسمائة ألف، ولم يكتف المهدي بذلك كله، بل أضرم النيران في القصور بعد ما أفرغت من محتوياتها، وأضحت المدينة الضاحكة أطلالا دارسة، وخرائب موحشة، وكان المهدي يتعجل إزالة رسوم بنى عامر بكل ما وسع، خشية أن يعود عبد الرحمن المنصور، قبل أن يتم إحكام ضربته وتوطيد مركزه^(٢).

ولقد كان المهدي سيئ السيرة، مغامرا متهورا أحرق، ألب الطوائف المختلفة بما كان يرتكبه من رذائل وآثام، ولقد اشتدت ثورة الأتقياء حين علموا أنه يقيم حفلات ساهرة، يبلغ الموسيقيون فيها مائة، ما بين عازف على العود أو الناي، وأطلقوا عليه اسم «السكرير» واتهموه بأنه خرب البيوت ونهب الممتلكات، مثل ما كان يفعل سابقوه، وهكذا بدأ يدفع بالرأى العام كله إلى صفوف المعارضة^(٣).

(١) دولة الإسلام ٢ / ٦٢٧ - ٦٢٨.

(٢) راجع: دولة الإسلام ٢ / ٦٣٥.

(٣) دراسات عن ابن حزم ١٠٩.

وقد تخوف المهدي أن يكون اسم هشام الثاني، الخليفة المعزول، راية تلتقى عندها كل الجماعات التي أساء إليها، ففكر واهتدى إلى حل وسط: ألا يقتل أسيره، وأن يكتفى بإعلان موته، وقد توفي في ذلك الوقت رجل نصراني أو يهودي، قيل إنه كان يشبه «هشاما» شبها قويا، فأعلن محمد بن هشام، وفاة الخليفة، ودعا المهدي بالفقهاء وعلمية القوم فشهدوا بأنه هو الخليفة هشام المؤيد حقا وصلى على الميت صلاة الجنائز، ودفن في مقابر المسلمين في جلال ملكي يليق بخليفة سابق، وكانت تلك الحادثة في السابع والعشرين من شعبان سنة ٣٩٩ هـ^(١)، وقد شهد ابن حزم ووالده فصول هذه «المسرحية» وأوردها في كتابه «الفصل» وفي غيره من الكتب في تندر واستنكار^(٢).

ولما شعر محمد بن هشام أن الأمر قد استتب له - بعد أن أعلن وفاة الخليفة - أطلق العنان لشهوته وأهوائه وبالع في الاستهتار والمجون، مما جعل البربر يتجمعون حول هشام بن سليمان وبياعونه بالخلافة، واتخذ لنفسه لقب «الرشيد» وقد استطاع أن يجمع حوله سريعا سبعة آلاف مقاتل من المناوئين للمهدي، فسار بهم جميعا إلى قصره، فلما علم الخليفة بالثورة أرسل يسأل: ماذا تريدون؟ ورد هشام الرشيد: أنت وضعت والدي في السجن، وأجهل مصيره، فأطلق الخليفة في الحال سراح سليمان، وظن أن الجماهير تقنع وتنصرف ولكن دون جدوى، وبعد قلاقل واضطرابات اضطر القرطبيون أن يحملوا السلاح، دافعا عن بيوتهم لا عن الخليفة، وجاء الجنود لمساعدتهم، ودار القتال بينهما يومين متتالين، ثم أسفرت المعركة عن هزيمة هشام وجموعه من البربر والعامريين، وأسر هشام ووالده، ونفر من الزعماء، وأمر المهدي بقتلهم جميعا^(٣)..

وأراد البربر أن يثأروا لهزيمتهم فوقع اختيارهم على سليمان بن الحكم بن سليمان حفيد عبد الرحمن الناصر، وبياعوه خليفة واتخذ لقب المستعين «وأخذ

(١) دولة الإسلام ٢ / ٦٤٤.

(٢) الفصل ١ / ٥٩ - وراجع - أيضا - نطق العروس: مبحث «أخلوقة لم يقع في الدهر مثلها».

(٣) انظر: دولة الإسلام ٢ / ٦٤٥، دراسات عن ابن حزم ١١٠.

الصراع بين المهدي وبين البربر بقيادة «المستعين» صورة يندى لها الجبين، ولعل الأحداث التي وقعت بين المهدي والمستعين - وكلاهما يدعى الخلافة - كان لها أثر بالغ في حياة الإمام ابن حزم وكتابه «الفصل» ونحن نذكر شيئاً من هذه الفتن والمآسى التي عاصر المؤلف أحداثها حتى ندرك العوامل التي جعلته يهتم بدراسة النصرانية واليهودية..

ويجدر بنا أن نشير إلى أمر كان هو الداء الدوى الذى كان معه البلاء، ذلك أن المسلمين لما فتحوا بلاد الأندلس تجمع النصارى فى ركن حصين فى شمالها فكانوا شوكة فى جنب الدولة، أو بالأحرى كانوا موضع الداء الكامن، وكان هؤلاء النصارى يكمنون للمسلمين بالمرصاد، فإن رأوا فرصة انتهزوها^(١). وقد ساعد النصارى فى تحقيق أغراضهم ما كان بين حكام المسلمين فى الأندلس من صراع على السلطة واستعانة بعضهم على بعض بأعدائهم، وإن التاريخ لينبئنا أن الصراع لما اشتد بين المهدي والمستعين أرسل المستعين أعوانه من البربر إلى كبير النصارى فى قشتاله يطلبون منه أن يمددهم بالجنود والمؤن الوفيرة - وقد كان المهدي بواسطة أعوانه استطاع أن يقطع عن البربر التموين - وتعهدوا إليه بتسليم بعض الحصون والقلاع، وعندما وصل السفراء إلى قصر الحكم فى قشتالة، وجدوا سفارة من المهدي سبقتهم إليه، تسوق بغالا وخيولا وهدايا أخرى، ووعده بالتنازل له عن عدد من القلاع والحصون إذا أسرع النصارى إلى مساعدة خليفة قرطبة!! وسيحان مغير الأحوال، لقد أصبح خلفاء قرطبة يتلقون الأوامر من أمراء النصارى فى الشمال، فيما يتصل بأخص شئونهم وما يتوقف عليه مستقبل بلادهم^(٢)!!

وقد رأى النصارى أن مصلحتهم تقتضى أن يلقوا مع البربر والمستعين الذى سار صوب قرطبة ومعه جموع البربر وعساكر النصارى بقيادة «سانشو غرسيه» واشتبك الفريقان فى القتال يوم السبت الثالث عشر من ربيع الأول عند سفح جبل قنطيس أو قنتش، وكانت نتيجة المعركة هزيمة مروعة للقرطبيين، ووضع البربر السيف

(١) راجع: ابن حزم لأبى زهرة ٩٥.

(٢) راجع: دراسات عن ابن حزم ١١٠.

عليهم، وقتل منهم عدد كثير يقدره البعض بعشرة آلاف، بينهم عدد كبير من العلماء والأئمة، وقتل النصارى وحدهم نيفا وثلاثة آلاف رجل^(١).. وبات الناس على سطوح دورهم فى وجل وخوف.. ولان المهدي بقصره، وبعد قليل حاصره البربر، وحاول أن ينقذ نفسه بحيلة سخيفة، يدفع بها دعوة سليمان فأظهر الخليفة هشاما المؤيد - الذى أعلن وفاته قبل ذلك - وأجلسه فى مكان بارز فى شرفة القصر، وبعث القاضى ابن ذكوان إلى البربر، يخبرهم أن الخليفة هشاما مازال على قيد الحياة، وأنه الخليفة الشرعى، وليس المهدي سوى نائبه وصاحبه، وضحك البربر من الرسول ومن الرسالة، وردوا عليه سبحانه الله يا قاضى! يموت هشام بالأمس وتصلى عليه أنت وغيرك، واليوم يعيش، وترجع إليه الخلافة^(٢)!!

وخلال المفاوضات كان القرطبيون يرتعشون لمجرد رؤية سليمان المستعين ومعه البربر يهددون أسوار مدينتهم، فخرج الشعب لاستقباله بحماسة^(٣). وبينما سليمان يأخذ طريقه إلى داخل العاصمة، ارتكب البربر والنصارى كل الجرائم التى تخطر على البال، وأفلت المهدي واختفى فى قرطبة، وطلب زعيم النصارى من سليمان أن يوفى له بوعده فى التنازل عن القلاع والحصون، واعتذر سليمان بأنها ليست فى يده الآن، ووعده للمرة الثانية بأن يتركها له حين تصبح فى ملكه، وحينئذ غادر النصارى قرطبة بعد أن جمعوا ثروات طائلة، مما نهبوا من أملاك القرطبيين.. وبعد أحداث جرت، ومعارك وقعت بين المهدي والمستعين استطاع المهدي أن يدخل قرطبة مرة أخرى - بعد أن كان غادرها إلى طليطلة - وجدد البيعة لنفسه بالخلافة للمرة الثانية^(٤)..

وأراد المهدي أن يقضى على البربر قبل أن يعودوا لمقارعتة فجمع الأموال من أهل قرطبة وحشد كل ما استطاع لقتالهم، وكان جيش المهدي يتكون من نحو ثلاثين

(١) البيان المغرب ٣ / ٩٠.

(٢) دراسات عن ابن حزم ١١٠.

(٣) الذخيرة لابن بسام المجلد الأول القسم الأول ٣٠ - ٣١ ودولة الإسلام ٢ / ٦٤٧.

(٤) راجع البيان المغرب ٣ / ٩٤.

ألف من المسلمين وتسعة آلاف من النصارى، والتقى الجمعان فى معركة طاحنة، دارت فيها الهزيمة على المهدي وحلفائه، وقتل من النصارى نحو ثلاثة آلاف، وغرق منهم عدد جم، واستولى البربر على كثير من أسلحتهم وخيلهم ومنازلهم، وكانت هذه الواقعة فى شهر ذى القعدة سنة ٤٠٠ هـ^(١).

وعاد المهزومون إلى قرطبة، وبلغ الغيظ بالنصارى مبلغه، فأرادوا أن يثأروا لهزيمتهم من عامة الناس، فقتلوا كل أولئك الذين يشبهون البربر على نحو ما، وكل من أراد أن ينتقم من شخص صاح فيه هذا بربرى، فيقتل دون أن يسأل، وأخذ جندى من النصارى ابنة رجل من البادية جميلة، وعرف أبوها، فحمل شكواه إلى «واضح» - والى مدينة سالم الذى تحالف مع المهدي - وقال إنها ليست بربرية، فرد عليه الوالى، دعك من هذا، ما إلى ردها إليك من سبيل، وعلى ذلك عاهدناهم، فمضى الرجل باكيا إلى الجندى، وحمل إليه ٤٠٠ دينار ذهبى يفقدى بها ابنته، فأخذها منه ثم قتله^(٢)...!!

تلك صفحة من صفحات الأندلس الحزين، وصورة للفتن التى عاشها واكتوى بنارها إمامنا على بن حزم، ويهمنا فى بحثنا هذا، أن نوضح الأمور الآتية:
أولا: أن احتكاك المسلمين بالنصارى فى الأندلس فى تلك الأيام جعلته يدرس الديانات المختلفة دراسة فاحص، ويتعرف أوجه التحريف فى كتب أهل الكتاب بهذا العمق الذى ورد فى كتاب «الفصل» وتحدثنا عنه فى تلك الدراسة.. كما استطاع أن يجادل النصارى عن بينة، ويعرف مصادرهم ومواردهم، والذى يعتقدون اتصاله بدعوة المسيح الأولى (التي)^(٣).

(١) دولة الإسلام ٢ / ٦٤٩.

(٢) دراسات عن ابن حزم ١١٤.

(٣) راجع أبا زهرة: ابن حزم ١٠٠.

ثانياً؛ هذه الفتن التي حدثت في عصره، جعلته يزهد في السياسة، ويشتغل بالدرس والتأليف، فكان كتاب «الفصل» وغيره من الكتب التي أثرت الفكر الإسلامي، وأصبحت مرجعاً لطلاب العلم على مر العصور.

ثالثاً: كان من الطبيعي ألا ينظر ابن حزم نظرة إكبار إلى الأمراء الذين كانوا يستعينون بالنصارى أو يمدون أيديهم بالولاء يستجدونه، أو بالإتاوة يدفعونها، فقد كان لا محالة ينظر إليهم بازدراء، لأنهم آثروا الدنيا على الآخرة، وآثروا الذلة على العزة، وآثروا الدنيا على الدين، ولذا كان بينه وبينهم عداوة كان من مظاهرها إحراق كتبه، وكان من مظاهرها أن جفوه حتى آوى إلى ضيعته التي ورثها، فأقام فيها يدرس ويصنف، يكتب الرسائل ويكتب العلماء ويراسلهم، حتى أدى مهمته وانتقل إلى جوار ربه^(١)..

ثانياً: الحالة الثقافية:

عاش ابن حزم في عصر نهضت فيه الثقافة، وعلت راية العلم، ووجد العلماء الأجلاء الذين جمعوا بين الثقافات المتعددة، وألفوا الكتب القيمة، أمثال الإمام أبي عمر بن عبد البر^(٢)، وأبي الوليد الباجي^(٣)، وغيرهما ممن اشتهر بسعة الأفق

(١) المرجع السابق.

(٢) هو يوسف بن عبد الله بن عبد البر: فقيه، حافظ، مكثّر، عالم بالقراءات وبخلاف في الفقه، ويعلم الحديث والرجال، لم يخرج من الأندلس لكنه سمع من أكابر أهل الحديث بقرطبة وغيرها، ومن الغرباء القادمين عليها، كان يميل في الفقه إلى قول الشافعي، وله تأليف نافعة من أشهرها: «التمهيد لما في الموطأ من المعاني والأسانيد» وكتاب «الاستيعاب» وكتاب «جامع بيان العلم وفضله» توفي بشاطبة في سنة ستين وأربعمائة، وكان صديقاً لابن حزم رحمهما الله (الضبي: بغية الملتمس ٤٨٩ - ٤٩١ وراجع أيضاً المغرب ٢ / ٧٠٤ وابن بشكوال: الصلة ٢ / ٦٧٧).

(٣) هو سليمان بن خلف الباجي المالكي الحافظ: فقيه، محدث، إمام، متقدم، عالم، متكلم، رحل إلى المشرق وكان مقامه به ثلاثة عشر عاماً سمع خلالها من جلة الفقهاء، ونال حظاً وافراً من العلم، وله توالييف تدل على معرفته وسعة علمه، وكان له مع ابن حزم مناظرات يطول ذكرها، ولد في ذى القعدة سنة ثلاث وأربعمائة وتوفي سنة أربع وسبعين وأربعمائة بالمرية (ابن بشكوال: الصلة ١ / ٢٠١ والبغية ٣٠٢ والمغرب ١ / ٤٠٤).

وكثرة المعارف، كما أن حركة الترجمة التي نشطت في عهد المأمون آتت أكلها في الأندلس.. وحين نقرأ كتاب ابن حزم في المنطق^(١) نجد أثر ذلك واضحا، كما أن مناقشاته للفرق المتعددة في كتابه «الفصل» تنبئ عن علم بما ترجم في عصره، وما قبله من كتب اليونان^(٢).

ولعل الفضل في تلك الروح العلمية التي أظلت بلاد الأندلس ترجع إلى عبد الرحمن الناصر الذي تولى نحو خمسين سنة^(٣)، وكان محبا للعلوم مكرما لأهلها، ولقد تحدثت كتب التاريخ عن «الحكم الثاني»^(٤) واهتمامه بالعلم والمعرفة، وكان هو نفسه عالما موسوعيا يقضى ساعات طويلة في مكتبته يقرأ، وقلمه في يده يعلق على ما يقرأ، وقلمها تجد كتابا في خزائنه، من أي فن كان، إلا وله فيه نظر، يكتب فيه بخطه إما في أوله وإما في آخره، أو في تضاعيفه، نسب المؤلف ومولده ووفاته والتعريف به، ويذكر أنساب الرواة له، ويأتي من ذلك بغرائب لا تكاد توجد إلا عنده لكثرة مطالعته وعنايته بمختلف الفنون، وكان موثوقا به، مأمونا عليه حتى صار كل ما كتبه حجة عند شيوخ أهل الأندلس وأئمتهم ينقلونه من خطه^(٥).

قال الحميدى في ترجمة ابن عبد ربه: «توفي أبو عمر أحمد بن محمد بن عبد ربه سنة ثمان وعشرين وثلاثمائة... ومدح الأمير محمدا، والمنذر، وعبد الله، وعبد الرحمن الناصر، هذا آخر ما رأيت بخط الحكم المستنصر، وخطه حجة عند أهل العلم عندنا»^(٦).

وكانت مكتبة الحكم الثاني تضم (٤٠٠,٠٠٠) مجلد وتشغل مكانا فسيحا في قصر الخلافة، ويحكى ابن حزم في كتابه «جمهرة أنساب العرب» نقلا عن تليد

(١) التقريب لحد المنطق والمدخل إليه بالألفاظ العامية والأمثلة الفقهية (راجع مبحث تراث ابن حزم).

(٢) أبو زهرة: ابن حزم ١٠١.

(٣) تبتدئ من سنة ٣٠٠ إلى سنة ٣٥٠ هـ (انظر: جنوة المقتبس ١٣).

(٤) راجع ترجمته ص ١٤.

(٥) الحلة السيرة: ٤٨.

(٦) الجنوة: ٩٤.

الفتى - وكان على خزانة العلوم - أن عدد الفهارس التي فيها تسمية الكتب أربع وأربعون فهرسةً، وفي كل فهرسة، خمسون ورقة، ليس فيه إلا ذكر أسماء الدواوين لا غير^(١).. وقد اتخذ الحكم وراقين له بأقطار البلاد ينتخبون له غرائب التواليف، ووجه رجالا إلى الآفاق بحثا عن الكتب، وكان يدفع فيها أثمانا غالية، فحملت إليه من كل جهة حتى غصت بها بيوته وضافت عنها خزائنه، وجمع منها ما لا يجمعه أحد قبله^(٢).

وقد أغدق «الحكم» العطايا على مختلف العلماء والأدباء والفقهاء كي يؤلفوا من أجل خزائنه، أو يضيفوا كتبهم إلى ما فيها، كما كان يُغرى علماء المشرق بالقدوم عليه، وكان من هؤلاء أبو علي القالى اللغوى الذى قدم على الحكم فأكرمه وأحسن مثواه، وكان ينشطه بوسع العطاء، ويشرح صدره بالإفراط فى الإكرام^(٣). ومما يلحق بهذا النشاط العلمى كثرة الأطباء وعلماء التنجيم الذين تجمعوا حول الناصر والمستنصر، وكان الأسقف القرطبى «ابن زيد» مختصا بالمستنصر وله ألف كتاب «تفضيل الأزمان ومصالح الأبدان»^(٤) أما الطبيب «حسداى بن إسحاق» اليهودى فقد استغل حظونه عند «الحكم» وتوصل من ذلك إلى استجلاب ما شاء الله من تأليف اليهود بالمشرق ففتح بذلك يهود الأندلس باب علمهم من الفقه والتاريخ وغير ذلك، وكانوا من قبل يعتمدون فى فقه دينهم، وسنى تاريخهم، ومواقيت أعيادهم على يهود بغداد^(٥)..

ولا ريب أن هذه الكتب التى حوتها خزانة «الحكم» كانت تحت نظر ابن حزم ينهل من علمها، ويستمتع بقراءتها، قراءة العالم الواعى الذى يفهم ما يقرأ، ويستوعب ما يدرس، حتى آتت القراءة أكلها، فكان هذا التراث الضخم الذى خلفه ابن حزم، ومنه كتاب «الفصل» الذى تظهر فيه معالم تلك القراءة واضحة جلية،

(١) ابن حزم: جمهرة أنساب العرب ١٠٠.

(٢) تاريخ الأدب الأندلسى: ٦٦.

(٣) الجذوة ١٥٦ نقلا عن تاريخ الأدب الأندلسى ٦٤.

(٤) نفع الطيب ٧٧٨ / ٢.

(٥) راجع طبقات الأطباء ٤٩٨.

ومما يؤكد اطلاع ابن حزم على هذه المكتبة أنها بقيت محفوظة إلى أيام الفتن التي قامت في قرطبة من سنة ٣٩٩هـ إلى سنة ٤٠٣هـ؛ فقد قال ابن خلدون، ولم تنزل هذه الكتب بقصر قرطبة إلى أن بيع أكثرها في حصار البربر، وأمر بإخراجها الحاجب «واضح» من موالى المنصور بن أبي عامر، ونهب ما بقي منها عند دخول البربر واقتحامهم إياها^(١).

ولقد حوى عصر ابن حزم مَكْتَبَاتٍ أُخْرَى خاصة بأصحابها غير مكتبة «الحكم الثاني» ولناخذ - مثلا - مكتبة قاضي الجماعة بقرطبة، أبي المطرف «عبد الرحمن ابن فطيس» فقد جمع الكتب الكثيرة في أنواع العلم المختلفة وكان له ستة وراقين ينسخون، ورتب لهم على ذلك راتباً معلوماً، ومتى علم بكتاب حسن عند أحد من الناس طلبه للابتياح منه، وبالغ في ثمنه، فإن قدر على ابتياعه، وإلا انتسخه منه وردّه إليه^(٢).

ولم يقف الأمر عند الخاصة من الناس، فكان البسطاء - أيضاً - يعنون بأن تكون لهم مكتباتهم في بيوتهم بقدر ما تسمح به إمكانياتهم، ولدينا معلومات عن صاحب «كُتَاب» يدعى ابن حزم (غير صاحبنا مؤلف كتاب الفصل) يعلم الأطفال فيه، وكان ما يوفره يشتري به كتباً، وفي ساعات الفراغ يقوم على نسخها، وكانت مكتبة منظمة، فيها كتب قيمة، وأحياناً نادرة، أتى بها في رحلة كانت له إلى المشرق، وتتميز بالضبط والدقة، وللإفادة منها يتردد عليها العلماء والطلاب^(٣).

ومن كل ما سبق يتبين لنا أن الحالة العلمية بالأندلس كانت مزدهرة منتعشة، وأن ابن حزم وجد فيها التربة الخصبة، والمكان الرحب الواسع الثراء بالعلوم والآداب، فنهل من كل علم، وتذوق كل فن، فجاء بثقافة واسعة، وحمل علوماً نافعة^(٤).

(١) نفع الطيب ٤/ ٢٤٢ ط الرفاعي.

(٢) دراسات عن ابن حزم: ٦٣.

(٣) السابق ٦٤.

(٤) سهير أبو وافية: ابن حزم ٤١.

ثالثا: الحالة الاجتماعية:

يطيب لنا ان نشير بكلمة إلى المجتمع الأندلسي في عصر ابن حزم لأن كتاب «الفصل» كان انعكاسا لهذا المجتمع وما يضم بين جنباته من أجناس مختلفة، وسلالات متباينة..

لقد كان هناك العرب الذين جاءوا مع موسى بن نصير، أو في أفواج أيام عبد الرحمن الناصر، وقد أورد لنا ابن حزم معلومات مستفيضة عن منازلهم في كتابه «جمهرة أنساب العرب»^(١) واتخذ عدد منهم مكانه إلى جانب الإمارة أو الخلافة، ولم تكن أعدادهم كبيرة في مدينة قرطبة، ويمكن القول أنهم كانوا أقل عددا من أية طائفة أخرى، ويتولون الوظائف الهامة، وعكف بعضهم على التجارة، وقلّة تُدير من العاصمة مزارعها الواسعة في الريف، وحافظوا على أصولهم التي انحدروا منها، وحرصوا على أن يتميزوا بألقابهم العربية^(٢).

وكان هناك البربر الذين سارعوا إلى دخول الأندلس لقربها من أوطانهم، وقد اتخذ البربر من جنوب الأندلس وغربها مئوى لهم لشبهها ببلادهم، وإذا كان الكثيرون منهم عملوا في المهن المتواضعة، فإنّ التاريخ ينبئنا عن بعض الشخصيات التي استطاعت بمواهبها أن تنال حظا وافرا من العلم ومكانا مرموقا في الحياة السياسية والأدبية من هؤلاء: أبناء يحيى بن يحيى الليثي^(٣) كبير فقهاء المالكية، ومنذر بن سعيد^(٤) شيخ الخطباء، وابن دراج^(٥) القسطلي شاعر المنصور بن أبي عامر..

(١) راجع - مثلا - صفحات ٣٩٠، ٣٩٧، ٣٩٨، ٤٠٤، ٤٢١ من الكتاب المذكور.

(٢) دراسات عن ابن حزم: ١٣ - ١٤، وانظر - أيضا - لطفى عبد البديع: الإسلام في أسبانيا ١٨ - ٢١. (٣) يحيى بن يحيى الليثي، أشهر فقهاء الأندلس، أصله من البربر، رحل إلى المشرق فسمع مالك بن أنس وكان مالك يسميه "عاقل الأندلس" رفض أن يتولى أى منصب رسمي، ولكن نفوذه كان أكبر من أى موظف، توفي في رجب لثمان بقين منه من سنة أربع وثلاثين ومائتين (ابن سعيد: المغرب ١ / ١٦٣).

(٤) منذر بن سعيد: من أصل بربري، من فحص البلوط، ولي قضاء الجماعة بقرطبة في حياة الحكم المستنصر بالله، وكان عالما فقيها، وأديبا بليغا وظل في منصبه هذا ستة عشر عاما، ثم توفي ليلة الخميس لليلتين بقيتا لذي القعدة آخر سنة خمس وخمسين وثلاث مائة. (راجع: الخشنى: قضاة قرطبة ١٢٠ والضحى: بغيّة الملتمس ٤٦٥).

(٥) أحمد بن محمد بن دراج القسطلي، ولد سنة سبع وأربعين وثلاثمائة، كان معدودا في جملة العلماء، والمتقدمين من الشعراء، وشعره كثير مجموع يدل على علمه: قال ابن حزم: «لو قلت إنه لم

أما الكثرة الغالبة من السكان في الأندلس فهم من سكانها قبل الفتح الإسلامي ويسمئهم المؤرخون «المسالمة» كما يطلقون على أبنائهم «المولدون» وكان منهم الحرفيون، وصغار التجار، ورجال الأعمال، وبعضهم كان يعمل في المزارع حول قرطبة^(١).

ثم نجد السود والصقالبة الذين يتخذون لخدمة القصور، وقد ازداد عددهم زيادة كبيرة في عهد الناصر لدين الله.. وأكثر منهم المنصور بن أبي عامر، لأنهم اشتهروا بالقوة والاحتمال.. وقد نبغت طائفة منهم في العلم والأدب فكان منهم الشعراء والكتاب، وقد خصهم «حبيب الصقلي» بكتاب ذكر فيه مآثرهم سماه «كتاب الاستظهار والمغالبة على من أنكر فضائل الصقالبة»^(٢).

وكان هناك «المستعربون» - كما تسميهم المصادر اللاتينية - أو «نصاري الذمة» أو «العجم» - كما تطلق عليهم المصادر الغربية - الذين يتبعون مذهب «الملكانية» - كما يقول ابن حزم في الفصل، وقد كلفت الدولة الإسلامية حرية العقيدة في أداء شعائرتهم، والحفاظ على كنائسهم وأديرتهم.. فعاشوا آمنين على أنفسهم وأموالهم لا يتعرض لهم أحد بسوء، ولا يكرهون على اعتناق عقيدة، ولا تحرق لهم كنيسة، ويمكن أن نلمس شيئاً من تلك السماحة التي عاش في ظلها نصاري الأندلس من خلال الكتاب الذي كتبه «عبد العزيز بن موسى بن نصير» «لتدمير بن عبدوش» أنه نزل على الصلح، وأن له عهد الله ودمته ودمته نبيه - ﷺ - ألا يقدم له ولا لأحد من أصحابه ولا يؤخر ولا ينزع عن ملكه، وأنهم لا يقتلون ولا يسبون ولا يفرق بينهم وبين أولادهم ولا نسائهم، ولا يكرهون عن دينهم، ولا تحرق كنائسهم، ولا ينزع عن ملكه ما تعبد ونصح وأدى الذي اشترطنا عليه^(٣).

يكن بالأندلس أشعر من ابن دراج لم أبعد" توفي قريبا من العشرين والأربعمئة، وقيل توفي سنة إحدى وعشرين وأربعمئة (راجع ابن بشكوال ١ / ٤٠).

(١) دراسات عن ابن حزم ١٥.

(٢) لطفى عبد البديع: الإسلام في أسبانيا ٣٧.

(٣) ابن عبد المنعم الحميري: صفة جزيرة الأندلس ٦٢.

وقد استقل نصارى الأندلس بشئونهم الدينية، وكان لهم رئيس ينتخبونه من بينهم يدعى قومس COMES وقاضى يعرف بقاضى النصارى أو العجم، يفصل فيما يكون بينهم من منازعات بمقتضى قانون يختص بهم، أما ما يكون بين مسلم وذمى من منازعات فالفيصل فيها الشريعة الإسلامية، كما كان لهم كنائس فى داخل المدينة، وعدد آخر خارجها، تضم كل واحدة منها ديرا.. وبرغم أن أصابع الاتهام كانت تشير إلى بعض الأديرة التى تحولت إلى حانات للشراب وأمكنة لممارسة الحب، فلا يمكن القول بأنهم جميعا، وبأن الأديرة كلها كانت كذلك، ومهما يكن من أمر، فإن مثل هذا الاتهام لم يكن يسبب أية متاعب لطائفة النصارى^(١).

أما اليهود فقد سكنوا الأندلس قبل مجىء المسلمين، ولكنهم وجدوا فى رحاب الإسلام منجاة لهم مما أصابهم من قهر واضطهاد، وأملاً فى عودة حقوقهم المغصوبة، وحریتهم المسلوبة.. ولذلك كان اليهود عوناً للمسلمين على حركة الفتح – منذ اللحظة الأولى – ومن القواد من كان يكل إليهم حراسة المدن^(٢). ولما استقر الأمر للمسلمين بالأندلس منحوهم سماحة وحرية كانوا لا يحلمون بهما فى تلك البلاد التى سامتهم سوء العذاب، فمنحوهم حرية التنقل فى أنحاء البلاد والتجارة بها، وألحقوهم بالوظائف العامة، وأعادوا لهم أراضيهم وأموالهم التى صادرتها الحكومات السابقة، وأعادوا لهم أبناءهم الذين كانت الكنيسة قد أخذتهم لتربيتهم تربية مسيحية، وسمحوا لهم ببناء معابدهم، وإقامة شعائرهم الدينية، ومنحوهم الاستقلال القضائى فى القضايا الشرعية^(٣).

وقد دفعت سماحة المسلمين بالأندلس اليهود فى أنحاء من أوروبا، وأفريقيا، وآسيا إلى الهجرة إلى تلك الديار^(٤).

(١) دراسات: ١٨.

(٢) انظر: الإسلام فى أسبانيا ٣٣.

(٣) اليهود فى الأندلس ٢١.

(٤) انظر: المرجع السابق ٢١ ودراسات عن ابن حزم.

والظاهر أنهم كانوا يؤلفون الكثرة الغالبة من سكان بعض المدن، حتى قال الإدريسي عن «اليسانة»: «إن سكانها كانوا من اليهود فقط ولا يداخلهم فيها مسلم»^(١).

أما في قرطبة فكانوا يكونون جالية كبيرة، تقطن حياً خاصاً بها يقع بين شارع القنطرة وقصر الخلافة، ويحمل اسمهم، وكان أحد أبواب المدينة يطلق عليه اسم باب اليهود^(٢). وقد كانوا يعملون في الصناعات والحرف التي تُدرُّ أرباحاً طائلة واحتكروا بعض أنواع التجارة، كتجارة العبيد، والحريز، والتوابل، كما عملوا مترجمين وأطباء، وفي التنجيم والفلك، وبعض الوظائف التي تتصل «بخزانة المال»^(٣)، وقد عظم شأن اليهود في عاصمة الخلافة في عهد «عبد الرحمن الناصر»، الذي كان له طبيب يهودي يدعى: إسحاق بن عزرا بن شفروط، واشتهر باسم: «حسداى بن شفروط»، وقد استطاع أن يكسب ثقة الخليفة وحبّه، واشتهر بترجمته لكتاب «ديوسقوريديس» في الحشائش والنباتات الطيبة^(٤)، وقد أعجب الخليفة بالترجمة فعين «حسداى» طبيباً في القصر، وانتفع بدرايته باللغة اللاتينية عند استقباله لرسول أمراء ممالك أوروبا الناطقة باللاتينية، وكان يستشيريه في أمور الدولة الداخلية والخارجية وخاصة في شئون التجارة وأصبح «ابن شفروط» على مر الأيام المهيمن على تجارة الأندلس وشئونها الخارجية^(٥).

ويرجع الفضل إلى «حسداى» في إقامة مدرسة الدراسات اليهودية في قرطبة التي توسع فيها اليهود حتى أصبحت داراً للإفتاء في الشريعة اليهودية، وبديلاً لمدرستي العراق (صوراً وبمباديا) اللتين كانتا تتصدران لهذا الأمر^(٦).

(١) الإدريسي: المغرب وأرض السودان ومصر والأندلس ٢٠٥ نقلاً عن اليهود في الأندلس ٢١.

(٢) دراسات عن ابن حزم ١٨.

(٣) انظر: اليهود في الأندلس ٢١.

(٤) انظر: الإسلام في أسبانيا ٣٣.

(٥) اليهود في الأندلس ٢٣.

(٦) انظر: دراسات عن ابن حزم ٢١.

وفي عصر الطوائف قام اليهود بنصيب وافر في إشعال نار الفرقة بين أمراء الطوائف واستطاعوا بدهائهم أن يشغلوا كثيرا من المناصب المهمة في الدولة، نذكر منهم: إسحاق بن يعقوب الذي كان صاحب الشرطة في غرناطة، و«ابن نغريلة» الذي وصل إلى درجة الوزارة رسميا، وكان مسئولا أمام «باديس» عن شئون الإمارة الداخلية، وبعد سنوات ولاه إمرة الجيش فقاد «ابن نغريلة» الحملات الحربية ضد أعداء «باديس» بيد أن هذا اليهودي نسي إكرام المسلمين له ولأهل دينه، فتناول على الإسلام وشرائعه، واستهزأ بالمسلمين، وجاهر بأنه قادر على أن ينظم القرآن في أشعار وموشحات ليتغنى به في المجالس والأسواق، ومن شعره بالعربية عن القرآن:

نقشتُ في الخدِّ سطرًا من كتاب الله موزون
لن تنالوا البرَّ حتَّى تُنفقوا ممَّا تحبُّون^(١)

ولسنا نود أن نسير مع هذا اليهودي الكنود في سفاهته وتطاوله على دين لولا سماحة تعاليمه ما وصل - هو وأهل جلدته - إلى ما وصلوا إليه من سماحة، وحرية، وإكرام، ولعل في هذا القدر ما يشير إلى تلك المعركة الفكرية التي كانت بين الإسلام واليهودية في عصر ابن حزم، وتولى كبرها «ابن نغريله» الذي ألف كتابا يطعن فيه على الإسلام وكتابه الكريم فرد عليه ابن حزم بكتاب سماه «الرد على ابن نغريلة اليهودي»^(٢) واستنكر المسلمون هذه الوقاحة واحتجوا على «حبوس» لاستوزاره، وعلى أهل غرناطة لانصياعهم لحكم هذا اليهودي فقال أبو إسحاق إبراهيم بن مسعود في هذا المعنى:

ألا قل لصنهاجة أجمعين بُدُّور الزمان وأسد العرين
لقد زلَّ سيدكم زلَّةً أقربها أعين الشامتين
تخيَّر كاتبه كافرًا ولو شاء كان من المسلمين
فعرَّ اليهود به وانتخوا وكانوا من العشرة الأردلين^(٣)

(١) ابن سعيد: المغرب ١١٤، لاحظ أن البيت الثاني نظم للآية الثانية والتسعين من سورة آل عمران.
(٢) حقيقه إحسان عباس (انظر مبحث تراث ابن حزم).
(٣) اليهود في الأندلس ٤٤.

وقد نالت المرأة فى مجتمع الأندلس نفوذا واسعا، وتمتعت بقسط وافر من الحرية، فكانت «صبح»^(١) ذات سلطات واسع فى أيام «الحكم» وفى جانب من عهد ابن أبى عامر.

وكان «لطروب»^(٢) جارية عبد الرحمن إدلال كثير عليه، وقد نغم الناس على القاضى محمد بن زياد خضوعه لامراته «كفات»^(٣) لا لأن هذا الخضوع كان مستهجنا فى حد ذاته، بل لأن القاضى يجب أن يكون فوق هذا المستوى^(٤).. وتولت المرأة المناصب أيضا: فكانت «لبنى» كاتبة للخليفة الحكم بن عبد الرحمن، وهى نحوية، شاعرة، بصيرة بالحساب، مشاركة فى العلم، لم يكن فى قصره أنبل منها، وكانت عروضية، خطاطة جدا^(٥)، وكانت «مزنة» كاتبة الخليفة الناصر لدين الله، حاذقة فى الخط^(٦). كما اشتهرت «عائشة بنت أحمد بن قادم» الذى يقول عنها ابن حيان: «لم يكن فى حرائر الأندلس فى زمانها من يعدلها فهما، وعلما، وأدبا، وشعرا، وفصاحة، وعفة، وكانت تمدح ملوك زمانها وتخاطبهم فيما يعرض لها من حاجتها فتبلغ

(١) هى زوجة الحكم المستنصر بالله الأموى، خليفة الأندلس، وأم ولده هشام المؤيد بالله، لبثت زهاء عشرين عاما تسيطر بسحرها ونفوذها على خلافة قرطبة، وتقوم بتدبير شئونها فى السلام والحرب.. وكانت فتاة رائعة الحسن والخلال، فشغف بها «الحكم» وأغدق عليها حبه وعطفه، ولم تلبث أن استأثرت لديه بكل نفوذ ورأى، توفيت حوالى ٣٩٠ هـ (انظر: محمد عبد الله عنان: تراجم إسلامية ١٩٩ - ٢١١ ط الثانية مكتبة الخانجي بالقاهرة).

(٢) طروب: من فواضل نساء عصرها أولع بها الأمير عبد الرحمن الأوسط ولما عظيما، وكلف بها كلفا شديدا، فأغضبها ذات يوم فهجرته وصدت عنه، وأبى أن تأتيه ولزمت مقصورتها، فاشتد قلقه لهجرها وضاق ذرعه من شوقها، وحاول أن يترضاها بكل وجه فأعياه ذلك، فأرسل من خصيانه من يكرهها على الوصول إليه فأغلقت باب مجلسها فى وجوههم، وآلت أن لا تخرج إليهم طائفة ولو انتهى الأمر إلى القتل. فانصرفوا إلى عبد الرحمن وأعلموه بالأمر، واستأذنه فى كسر الباب عليها فنهاهم وأمر بسد الباب عليها من خارجه بالدراهم، ففعلوا، وأقبل حتى وقف بالباب وكلمها مسترضيا رغبة فى المراجعة على أن لها جميع ما سد به الباب فأجابت وفتحت الباب فانهالت الدراهم فى بيتها، فأكبت على رجله تقبلها وحازت المال، وأعطاها حليا قيمته مائة ألف دينار، وكانت ذات نفوذ وسلطان فى الدولة تبرم الأمور فلا يرد لها شىء مما تيرمه. (عمر كحالة: أعلام النساء ٣٦٦ / ٢ الطبعة الثانية - المطبعة الهاشمية بدمشق ١٣٧٨ هـ - ١٩٥٩ م).

(٣) انظر: الخشنى: قضاة قرطبة ٦٠ (الدار القومية للتأليف والترجمة سنة ١٩٦٦ م).

(٤) إحسان عباس: تاريخ الأدب الأندلسى ٢٦.

(٥) توفيت سنة أربع وسبعين وثلاثمائة. (الصلة ٣ / ٦٩٢).

(٦) توفيت سنة ثمان وخمسين وثلاثمائة. (الصلة ٢ / ٦٩٢).

ببيانها حيث لا يبلغه كثير من أدباء وقتها، وكانت حسنة الخط تكتب المصاحف، وتجمع الكتب، وتعتنى بالعلم، ولها خزانة علم كبيرة حسنة^(١)».

ولعل هذه المكانة التي بلغتها المرأة هي التي نبهت الأندلسيين إلى التساؤل حول علاقة المرأة بالنبوة وأوقعت الجدل بين الفقهاء القرطبيين في هذه المسألة^(٢).

أما عن لغة هذا المجتمع الذي عاش فيه ابن حزم، فكانت اللغة العربية الفصحى هي اللغة القومية لأنها لغة القرآن، ولذا أصبحت لغة الحديث في اجتماعات الأصدقاء المثقفين وفي مجالس الأدب، وفي مراحل التعليم المختلفة، وفي العلاقات الدولية، وخاصة مع المشرق. وكان التمكن منها شرطا لتولى المناصب العامة، والتفوق فيها الطريق الوحيد إلى النبل المكتسب والوظائف العليا^(٣). ومن ثم نجد الشباب من غير المسلمين مولعين بالتراث العربي من أدب وشعر، ولم يعودوا يقرءون إلا كتب المسلمين وقد جأر المطران الفارو بشكواه من انتشار اللغة العربية بين شباب النصارى مما أفضى بهم إلى نسيان لغتهم، قال: «ولا تكاد تجد بين أتباع المسيح واحدا من ألف يحسن كتابة رسالة إلى أخ له، في حين أن هناك عددا لا يحصى ممن يتشددون بالألفاظ العربية، ويتذوقون جمال الشعر خيرا من المسلمين^(٤)».

وكانت البربرية، بلهجاتها المختلفة، في الأعوام الأولى من الفتح، يتحدث بها مع الجنود البربر والمهاجرين من شمال أفريقية، ولكنها ما لبثت أن تقهقرت أمام العربية، حتى تلاشت تماما في هذا العصر الذي نحن بصدده^(٥).

وكانت هناك اللغة اللاتينية، ويسميتها المؤرخون العرب العجمية أو اللطينية، وقد ساق «الخشني» في كتابه تاريخ القضاة أخبارا عن قضاة أندلسيين كانوا يكلمون الخصوم الذين بين أيديهم بالعجمية^(٦).

(١) توفيت سنة أربعمائة (الصلة ٢ / ٣٩٦).

(٢) تاريخ الأدب الأندلسي ٢٦.

(٣) دراسات ٢٤ - ٢٥.

(٤) الإسلام في أسبانيا ٢٨ - ٢٩.

(٥) دراسات ٢٦.

(٦) انظر: قضاة قرطبة ٨٠.

والظاهر أن هذه اللغة كانت من الشيعو بين أهل الأندلس بحيث تعجب ابن حزم من أن بنى بلى بن عمرو بن الحافى، وكانت دارهم بالموضع المعروف باسمهم بشمال قرطبة، لا يحسنون الكلام بها وإنما يتكلمون بالعربية فقط، قال فى «جمهرة أنساب العرب» بعد أن ذكر موضعهم «وهم هنالك إلى اليوم على أنسابهم، لا يحسنون الكلام باللطينية، لكن بالعربية فقط^(١)».

وعرف العصر عددا من كبار المفكرين اليهود فى قرطبة، وفى غيرها، وفىه بدأت الدراسات اليهودية تزدهر، ومع ذلك لا يمكن القول بأن اللغة العبرية كانت لغة ثقافية أو محادثة لأحد، صحيح أن عددا محدودا من علماء اليهود كان على معرفة بها، ولكنها معرفة المتخصص الراغب فى الدراسة، أكثر منها معرفة المتمكن يجعل منها محملا لأفكاره أو مشاعره، أو أداة وصل بينه وبين الآخرين^(٢).

* * *

تلك هى ملامح مجتمع الأندلس الذى درج عليه صاحبنا أبو محمد بن حزم وقد رأينا كيف كان للجالية اليهودية والطائفة المسيحية مكانة مرموقة فى هذا المجتمع الذى تظلمه راية الإسلام سماحة وعدلا.. ولا ريب أن وجود هذه الطوائف التى خالطت المسلمين بالأندلس أدى إلى صراع فكرى، وجدل دينى، وخاصة بعد أن ازداد الاحتكاك بين المسلمين وبين النصرارى فى الشمال بسبب الحروب التى دارت رحاها حيننا من الدهر، ولم تنقطع إلا بضياغ الإسلام من هذه البلاد.. ولقد كان كتاب الفصل ثمرة لهذا الالتقاء بين المسلمين وغيرهم من الطوائف المختلفة الأمر الذى لولاه ما كان كتاب «الفصل» هذا، كما عرفه الباحثون عمقا.. ودقة.. واتساعا..

رابعا: الحالة الدينية:

لم يمض وقت طويل على فتح الأندلس (سنة ٩٢ هـ) حتى دخل الناس فى دين الله أفواجا، وأقبلوا على الدعوة الجديدة عقيدة.. وفكرا.. وسلوكا.. وقد حرصوا على أداء

(١) جمهرة أنساب العرب ٤٤٣، وانظر - أيضا - الإسلام فى أسبانيا ٢٥.

(٢) دراسات ٢٧.

شعائره، واتباع تعاليمه فى حب وهدوء. ومن ثم كان الرحالة المشاركة عندما تطأ أقدامهم بلاد الأندلس تنشرح صدورهم بما عليه الناس من ولاء وإخلاص خصوصا من أولئك الإيبيريون الذين أسلموا مع الفتح أو بعده.. وقد احترم الولاة فى تلك الديار حرية العقيدة، ولم يكن أحد يُكره على اعتناق الإسلام، ومن أراد ذلك فإرادته مطلقة ودون ضغط أو تدخل من أحد، وكان يتم اعتناق الإسلام أمام القاضى، ويسجل فى وثائقه^(١).

ولا ريب أن ديار الأندلس الإسلامية عاشت وفيئةً لمذهب الإمام مالك - عليه سحائب الرحمة - وضافت بكل الذين اعتنقوا مذهباً غيره، أو حاولوا الدعاية لمذهب آخر سواه، وقد كانت الأندلس تضم ثلثة من فقهاء هذا المذهب بخلاف غيره من المذاهب الفقهية الأخرى، وكان على رأس فقهاء هذا المذهب سليمان بن خلف الباجى الذى كان بينه وبين ابن حزم مواقف ومناظرات يطول ذكرها، ولعل مكانة هذا المذهب وانتشاره فى تلك البلاد يرجع لعاملين أساسيين:

(أ) ذكر المقرئ فى «نفح الطيب» أن الأمير هشام بن عبد الرحمن قد نقل إليه ما عليه الإمام مالك من سعة العلم، وجلالة القدر والتقوى، وأنه عندما سمع بسيرته من بعض الأندلسيين قال لهم نسأل الله أن يزين حرمنا بملككم، فأحب مالكا ومذهبه وحمل الناس على اتباعه^(٢).

(ب) ما أورده الحميدى عن أستاذه ابن حزم من تمكن يحيى بن يحيى عند السلطان - الحكم بن هشام - وجعله القضاء فى الأندلس قاصرا على المالكيين.. مما دفع الناس إلى التفقه على مذهب مالك - رضى الله عنه - طلبا للدنيا ورغبة فيما عند السلطان، والناس - كما يقول ابن حزم - سراع إلى الدنيا والرياسة، فأقبلوا على ما يرجون بلوغ أغراضهم به^(٣).

(١) راجع: الطاهر مكي: دراسات ٥٧.

(٢) المقرئ: نفح الطيب ٢/ ١٢٦.

(٣) راجع: جذوة المقتبس ٣٨٣ - ٣٨٤.

ومن الصعب أن نحدد من هو أول من أدخل مذهب مالك إلى الأندلس، فمن قائل: إنه زياد بن عبد الرحمن المعروف بشببطين لأنه أول من أدخل الموطأ إلى بلده^(١)، ومن قائل: إن الغازي بن قيس دخل الأندلس بالموطأ في أيام عبد الرحمن^(٢)، وقد كان موطأ الإمام مالك هذا، وشرح المدونة لسحنون القيرواني، من أوائل الكتب التي يدرسها المالكية وأكثرها رواجاً..

وفى النصف الثاني من القرن التاسع الميلادي جاء قاسم بن محمد بن سيار بالمذهب الشافعي من المشرق، وانصرف إلى نشره عن طريق الدرس والتأليف، وكان يلقي دروسه في المسجد الجامع، ووجد رعاية من بعض الأمراء حماية له من علماء المالكية، وعاش المذهب الشافعي في الظل طوال أيام عبد الرحمن الناصر، لأن ابنه الأمير عبد الله - وكان شافعيًا - اتهم بالاشتراك في مؤامرة لخلع أبيه الناصر، لأنه بايع ابنه الحكم بولاية العهد دونه، وقد فشلت المؤامرة، ولقى عبد الله حتفه على يد أبيه، وكان لذلك أثره في انتشار المذهب الشافعي فتوقف نشاطه حتى أيام الحكم المستنصر، الذي كان يحسن وفادة القادمين إلى الأندلس من أهل الأدب المشاركة، وببهم عدد من شيوخ المذهب الشافعي، فانتعش المذهب الشافعي من جديد، ولكنه انكمش ثانية في عهد المنصور بن أبي عامر، وكان حاكماً واقعياً، فرأى من صالحه أن يجارى فقهاء المالكية ليكسب تأييدهم، وفيما بعد سوف يصبح ابن حزم واحداً من أتباعه، قبل أن يتحول إلى المذهب الظاهري^(٣).

وقد دخل المذهب الظاهري الأندلس على يد عبد الله بن محمد بن قاسم بن هلال المتوفى سنة ٢٧٢ هـ تقريبا، كما وجد غيره من العلماء الذين رحلوا للمشرق، ومهدوا للفقهاء الظاهريين بعد عودتهم، بما نشره من حديث رسول الله، وما نقلوا من أخبار المذهب وأخبار علمائه.. ومن أشهر هؤلاء بقى بن مخلد، وأبو عبد الله محمد بن وضاح، وقاسم بن أصبغ، ومن ثم ظهر علماء أمكنهم أن يعلنوا اختيارهم،

(١) نفح الطيب ١ / ٣٤٩.

(٢) إحسان عباس: تاريخ الأدب الأندلسي ٢٨.

(٣) الظاهر مكى: دراسات ٥٩.

ويجاهروا بظاهريتهم وكان على رأسهم القاضى منذر بن سعيد البلوطى الذى كان خطيب الأندلس، وقاضى الجماعة فى قرطبة، وقد اطلع ابن حزم على أخباره، والتقى بابنه سعيد بن منذر الذى توفى فى شيخوخة كبيرة سنة ٤٠٣ هـ^(١). ومن علماء الظاهر الذين أخذ عنهم العلم أبو محمد بن حزم مسعود بن سليمان بن مفلت أبى الخيار المتوفى سنة ٤٢٦ هـ..

ثم تسلم المذهب الظاهرى فى الأندلس ورفع لواءه الإمام ابن حزم كما سنبين فى حديثنا عن «منهجه الظاهرى».

وقد وجد فى الأندلس قلة قليلة تقول بآراء المعتزلة، ومن أوائل القائلين به، أحمد بن موسى بن حدير الذى كان يقول: «إن الله عاقل»^(٢) كما كان منذر بن سعيد يتهم بالميل إلى هذا المذهب، وكان «حكيم» ابنه رأس المعتزلة بالأندلس وكبيرهم وأستاذهم ومتكلمهم وناسكهم^(٣). وقد واجه فقهاء الأندلس هذا المذهب باستنكار شديد، والذين جاءوا إلى بلادهم لنشر هذا المذهب أبعدوا عنه، مثلاً وصل قرطبة أبو الطيب بن أبى بردة عام ٣٦١ هـ، وأحسن «الحكم الثانى» استقباله كواحد من كبار علماء الشافعية على أيامه، ولكن ما إن علم أنه من المعتزلة حتى أصدر قراراً بإبعاده ولكن ابن حزم يقول لنا: «إن وادى بنى توبة كان كله معتزلياً»^(٤).

وكان ابن مسرة يخلط مذهبه بآراء المعتزلة ويقول بالقدر^(٥)، ومؤسس هذا المذهب هو أبو عبد الله محمد بن عبد الله بن مسرة، قرطبى ولد سنة ٢٦٩ هـ وتعلم على يد أبيه ومحمد بن وضاح الخشنى، وفى أوائل أيام عبد الرحمن الناصر - أى سنة ٣٠١ على التحديد - خرج إلى المشرق فارا بنفسه لأنه اتهم بالزندقة^(٦).

(١) أبو زهرة: ابن حزم ٢٧٣.

(٢) الفصل ٤ / ٢٠٣.

(٣) طوق الحمامة ٧٢.

(٤) دراسات عن ابن حزم ٦٠.

(٥) راجع الفصل ٤ / ١٩٨.

(٦) تاريخ الأدب الأندلسى ٣١، ويقول الدكتور الطاهر مكى: إنه فى زيارته للرباط - عاصمة المغرب - وجد أن مخطوطة الجزء الخامس من كتاب «المقتبس» لابن حيان - التى توجد فى خزنة القصر الملكى

ويقول هذا المذهب على الجمع بين بعض مبادئ المتصوفة وبين أصول الاعتزال فلم يكن معتزليا خالصا، ولا باطنيا خالصا، فأما المبادئ الاعتزالية التي كان يقول بها فهي قوله بالاستطاعة والوعد والوعيد ورؤية الله. ويقول ابن حزم «إن ابن مسرة شارك المعتزلة في القول بالقدر، وكان يقول: إن علم الله وقدرته صفتان محدثتان مخلوقتان، وإن الله تعالى عَلَّمِنِ أَحَدَهُمَا أَحَدُهُ جَمَلَةٌ وَهُوَ عِلْمُ الْكِتَابِ - أي علم الغيب - كعلمه أنه سيكون كفار ومؤمنون بالقيامة والجزاء ونحو ذلك، والثاني علم الجزئيات وهو علم الشهادة وهو كفر زيد وإيمان عمرو ونحو ذلك، فإنه لا يعلم الله تعالى من ذلك شيئا حتى يكون، وذكر قول الله تعالى ﴿عَلِمُ الْغَيْبِ وَالشَّهَادَةِ﴾^(١) (سورة الرعد: ٩). وأما المبادئ الباطنية فإنه بناها على آراء منسوبة «لأنبذ وقلبيس»، وليست له، وإنما هي آراء «فيلون» الإسكندري «وأفلوطين» ومن هذه الآراء المنسوبة «لأنبذوقليس» الجمع بين معاني صفات الله وأنها كلها تؤدي إلى شيء واحد، وأنه إن وصف بالعلم والجود والقدرة فليس هو ذا معان متميزة تختص بهذه الأسماء المختلفة بل هو الواحد بالحقيقة الذي لا يتكثر بوجه وقد يستنتج مما جاء في كتب ابن مسرة أن النبوة اكتساب لا اختصاص وأنه قد يحرزها من بلغ الغاية من الصلاح وطهارة النفس، وإن أنكر بعض أصحابه نسبة هذا القول له^(٢).

وقد أثارت آراء ابن مسرة بعض الخصومات الجدلية في المشرق وفي الأندلس وتصدى للرد عليه بعض العلماء من المشاركة وبلاد الأندلس على السواء، وكان من المشاركة: أحمد بن محمد بن زياد الأعرابي، وأحمد بن محمد بن سالم التستري، ومن أشهر الأندلسيين الذين قاموا بالرد على ابن مسرة الفقيه القرطبي، محمد بن يبقى بن زرب، وكان ذلك في أواخر خلافة الناصر عام ٣٥٠ هـ فمذحه الخليفة، مع الزبيدي، أبي محمد بن الحسن، سلطات واسعة لمحاصرة آراء ابن مسرة، فأمر

ولما تنشر تضم نصوصا كثيرة، ذات فائدة قصوى في توضيح مذهب ابن مسرة وتحديد مساره (دراسات عن ابن حزم ٦١).

(١) الفصل ٤ / ١٩٨.

(٢) الفصل ٤ / ١٩٩.

ابن زرب باعتقال كبار تلاميذه، وأكرههم على رفض أفكارهم على ملأ من الناس، وأمر بكتب ابن مسرة التي كانت معهم فأحرقت علانية على مرأى منهم، أمام أبواب المسجد الجامع، وقد خفت حدة الملاحقة في عهد «الحكم الثاني» ولكن ما إن ولى المنصور بن أبي عامر الحجابة، وعين ابن زرب قاضيا، حتى اشتدت الملاحقة من جديد^(١).

وكان من أصحاب مذهب ابن مسرة: إسماعيل بن عبد الله الرعيني، وهو متأخر الوقت عن الجيل الثاني من أصحابه، وقد أدركه ابن حزم ولم يلقه «وكان من المجتهدين في العبادة، المنقطعين في الزهد»^(٢) وقد أحدث في المذهب أقوالا سبعة فبرئ منه سائر «المسرية» وكفروه، إلا من اتبعه منهم، ومما أحدثه قوله: إن الأجساد لا تبعث أبدا، وإنما تبعث الأرواح، وكان يقول إن الإنسان حين يموت، تلقى روحه الحساب ويصير إما إلى الجنة أو إلى النار، وأنه لا بعث إلا على هذا الوجه، وكان يقول: إن العالم لا يفنى أبدا، وكان لا ينسب الفعل إلى الله وينزهه عن ذلك، ويرى أن العرش هو الذي يدبر العالم، وكان ينسب هذا القول إلى محمد بن عبد الله بن مسرة، ويحتج بالفاظ من كتبه، قال ابن حزم: «ليس فيها لعمرى دليل على هذا القول ولما برئت منه المسرية بقيت تتبعه ابنته: وكانت متكلمة ناسكة مجتهدة»^(٣) ويقول ابن حزم إنه (أى ابن حزم) عرض هذا الأقوال على ابن إسماعيل الرعيني فأنكر كل ذلك.. قال: «ورأيت أنا من أصحاب إسماعيل الرعيني المذكور من يصفه بفهم منطلق الطير وبأنه كان ينذر بأشياء قبل أن تكون فتكون، وأما الذى لا شك فيه فإنه كان عند فرقة إماما واجبة طاعته يؤدون إليه زكاة أموالهم، وكان يذهب إلى أن الحرام قد عم الأرض، وأنه لا فرق بين ما يكتسبه المرء من صناعة أو تجارة أو ميراث أو بين ما يكتسبه من الرفاق، وأن الذى يحل للمسلم من كل ذلك قوته كيف ما أخذه... هذا أمر صحيح عندنا عنه يقينا، وأخبرنا عنه بعض من عرف باطن أمورهم أنه كان يرى الدار دار كفر مباحة دماؤهم وأموالهم إلا أصحابه فقط، وصح عندنا عنه أنه كان يقول بنكاح المتعة..»^(٤).

(١) الدكتور مكى ٦١ وراجع أيضا: تاريخ الأدب الأندلسى ٣٥.

(٢) الفصل ٤ / ١٩٩.

(٣) الفصل ٤ / ١٩٩.

(٤) الفصل ٤ / ١٩٩ - ٢٠٠.